مفهوم السياق عند محمود شاكر وعلاقته بمفهوم الوحدة: دراسة وصفية

أ. عبد العزيز أسامة راجخان*

سلم البحث في ٢/١٠/١٤٤٧هـ اعتمد للنشر في ٥/١١/١٤٤٧هـ

ملخص البحث:

يهدف بحث "مفهوم السياق عند محمود شاكر وعلاقته بمفهوم الوحدة دراسةٌ وصفيةٌ " إلى الكشفِ عن مفهوم السياق عند محمود شاكر بتتبعِ آرائه ودراستها دراسةً نقديةً، ثم بالكشف عن أهميةِ مفهوم السياق عند الأستاذ شاكر في علاقته بمفهوم الوحدة، وكيف يؤثِّرُ السياق في توجيه دلالات النصوص وتحديدها، بما يكشف عن أهميَّةِ السياق في المساهمة في وحدةِ بناءِ النصِّ، ويعتمد البحث المنهجَ الوصفي بالتحليل والنقدِ القائم على الملاحظة، ليصل إلى استنباطات مهمة في مفهوم السياق وأثره في بناء وحدة النص.

الكلمات المفتاحية: سياق، شاكر، وحدة القصيدة، وحدة النص، المعنى الشعري.

Abstract:

The Concept of Context in Maḥmūd Shākir and Its Relationship to the Concept of Unity: A Descriptive Study

By: Abdulaz iz Osama Rajkhan

Master's Student – Faculty of Arts and Humanities – Department of Arabic Language King Abdulaziz University

This study, entitled *"The Concept of Context in Maḥmūd Shākir and Its Relationship to the Concept of Unity: A Descriptive Study,"* aims to examine the concept of context in the thought of Maḥmūd Shākir by tracing his views and analyzing them critically. It further seeks to explore the significance of the concept of context in his critical approach, particularly in relation to the concept of unity, and to demonstrate how context contributes to guiding and determining the meanings of texts. In doing so, the study highlights the role of context in shaping the unity and coherence of textual structure. The research adopts a descriptive-analytical method grounded in critical observation, leading to important insights into the concept of context and its impact on the construction of textual unity

Keywor: ds: Context, Shākir, Poetic Unity, Textual Unity, Poetic Meaning.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فقد اشتملت المُقدمَّةُ على النقاط التالية:

* طالب ماجستير, كلية الآداب والعلوم الإنسانية, قسم اللغة العربية, جامعة الملك عبد العزيز, جدة, المملكة العربية السعودية.

- موضوع البحث:

يدرس هذا البحث "مفهوم السياق عند محمود شاكر وعلاقته بمفهوم الوحدة"، بالرجوعِ إلى آراءِ محمود شاكر النقدية من كتبه، تحديدا ما جاء في كتابه "نمط صعب ونمط مخيف" لعرض أهمِ نصوصه وآرائه النقدية في مفهوم السياق وأثره في بناء وحدةِ النص، ومن ثَمَّ دراستها دراسة تحليلية ووصفية.

- مشكلة البحث:

تتمثّل مشكلةُ هذا البحث في غموض مفهوم السياق عند محمود شاكر من جهة تحديده الاصطلاحي، وتردّده بين كونه مفهومًا مُقعَّدًا ذا حدودٍ واضحة، أو كونه رؤيةً منهجيةً تتجلّى في ممارساته النقدية دون أن يُفصح عنها بحدٍّ جامعٍ مانع، ويترتّب على هذا الغموض صعوبةُ الوقوف على طبيعته ووظائفه، ولا سيّما في علاقته بمفهوم الوحدة.

ومن هنا تنشأ الحاجة إلى استقراء نصوص محمود شاكر النقدية، وتحليلها؛ للكشف عن ملامح مفهوم السياق عنده، وبيان حدوده ووظائفه، ثم النظر في علاقته بمفهوم الوحدة، وكيف يتداخل معه في تفسير انتظام عناصر النصّ، وتوجيه دلالاته، وتحقيق انسجامه.

- أهمية البحث:

تنبع أهميةُ هذا البحث من تناوله مفهومًا مركزيًّا في الدرس النقدي، هو السياق، في ضوء قراءة محمود شاكر، بوصفه أحد الأعلام الذين أسهموا في بناء رؤية نقدية متميّزة تقوم على استنطاق النصّ من داخله وربطه بقرائنه المختلفة، وتزداد هذه الأهمية من جهة سعي البحث إلى الكشف عن ملامح هذا المفهوم عند شاكر، في ظلّ غياب تعريفٍ اصطلاحيٍّ صريحٍ له في نصوصه، مما يقتضي استقراءً وتحليلًا يكشف عن حدوده ووظائفه.

كما تتجلّى أهميةُ البحث في بيان العلاقة بين مفهوم السياق ومفهوم الوحدة، بما يُسهم في تعميق الفهم ببناء النصّ الشعري، والكشف عن وجوه انتظامه وتماسكه؛ إذ إنَّ النظر في هذه العلاقة يُبرز دور السياق في توجيه المعنى، وربط أجزاء النصّ بعضها ببعض، على نحوٍ يحقّق وحدته.

ومن شأن هذا البحث أن يرفد الدرس النقدي العربي برؤيةٍ تحليليةٍ تُعيد قراءة تراث محمود شاكر في ضوء مفاهيمه المركزية، وتُسهم في تأصيل النظر إلى السياق بوصفه أداةً منهجيةً فاعلةً في تحليل النصوص، بما يفتح آفاقًا لدراساتٍ لاحقة تُعنى

بمفاهيمه النقدية الأخرى وصلاتها ببناء المعنى ووحدة النصّ.

- أهداف البحث:

١- بيان مفهوم السياق عند محمود شاكر والكشف عن ملامحه وحدوده من خلال استقراء نصوصه النقدية.

٢- تحليل تجلّيات السياق في ممارساته النقدية وبيان كيفيّة حضوره في قراءته للنصّ الشعري.

٣- الكشف عن العلاقة بين مفهوم السياق ومفهوم الوحدة وبيان دور السياق في تحقيق تماسك النصّ وإحكام بنائه.

- أسئلة البحث:

١- ما مفهوم السياق عند محمود شاكر، وما ملامحه وحدوده في ضوء نصوصه النقدية؟

٢- ما تجلّيات السياق في ممارسات محمود شاكر النقدية، وكيف يحضر في قراءته للنصّ الشعري؟

٣- ما العلاقة بين مفهوم السياق ومفهوم الوحدة، وما دور السياق في تحقيق تماسك النصّ وإحكام بنائه؟

- منهج البحث:

يعتمد هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي في إطار منهج نقد النقد، فيتتبع في البحث مفهوم السياق عند محمود شاكر وعلاقته بمفهوم الوحدة، بالاستقراء والتحليل لما وَرَدَ في جميع كُتُبِ محمود شاكر ومقالاته العلمية، لمعرفةِ آرائه والكشف عن مفهوم السياق وعلاقته بمفهوم الوحدة كما جاء عنده، بما يكشف عن ملامح مفهوم السياق ومن ثَمَّ أثره في المساهمة في بناء وحدة النص.

- خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفي المقدمة تحدثت عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهدافه ومنهج البحث وخطته، وقدمت في التمهيد ما يكشف عن تعريفات السياق اللغوي والمقامي في الدراسات النقدية الحديثة، بما يكشف عن أهميته بوصفه أداة توجه المعنى، ويتناول المبحث الأول مفهوم السياق عند محمود شاكر ويكشف فيه عن مظاهر استعمالات السياق عنده وأثره في استنباط دلالات النصوص، ويهتم المبحث الثاني بعلاقة السياق بمفهوم الوحدة بالكشف عن دورِ السياق في بناء وحدة النص وتوجيه دلالاته إلى تشكيل

المعنى الشعري، أما الخاتمة، فتتضمن أهم نتائج البحث.

- الدراسات السابقة:

تناولت بعض الدراسات مفهوم السياق، لكنَّها لم تتخصص بدراسة مفهوم السياق عند محمود شاكر، ولم تخصص بدراسة أثر السياق في بناء وحدة النص، إذ اتجه كثير من الدراسات إلى البحث عن مفهوم السياق عامةً، ومن أهمِّ تلك الدراسات:

١- دراسة بسام البرقاوي، **السياق وجهازه المصطلحي: قراءة في متصور السياق عند النقاد العرب**، بحث، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب واللغات، مجلة العلامة، مج٩، ع٣، ٢٠٢٥م.

تناولت الدراسة مفهوم السياق في التراث النقدي العربي القديم من خلال تتبع حضور مفهوم السياق في الخطاب البلاغي والنقدي، ثم بالكشف عن الجهاز المصطلحي المرتبط بمفهوم السياق، كالمقام ومقتضى الحال وصحة النسق والقِران، بما يفضي إلى نتيجة أن السياق لم يكن غائبا عند النقاد القدماء، وإن لم يصغ في صورة نظرية مستقلة، فيظهر أن الدراسة ركزت على البعد المصطلحي والمفاهيمي العام للسياق دون تحليل لتطبيقاته في قراءة نصوص محددة، وعليه، فقد اقتصرت على النقاد العرب القدماء بالمجمل، فلم تتناول ناقدا بعينه، ولهذا فقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي في عرض المفاهيم وتحليل دلالاتها، وعلى منهج استقرائي يتتبع استعمالات السياق في كتب التراث العربي بالتركيز على شبكة المفاهيم المرتبطة بالسياق.

ومن أبرز النتائج التي وصلت إليها الدراسة، أن النقاد العرب لم يضعوا نظرية مستقلة للسياق، لكنهم اشتغلوا بها ضمنيا، وأن السياق يتجلى من خلال جهاز مصطلحي واسع، وأن السياق عنصر أساس في الحكم على النص وتماسكه.

وبناءً على ما سبق، تختلف هذه الدراسة عن البحث الحالي في أنها اتجهت إلى معالجة مفهوم السياق في التراث العربي معالجة عامة ذات طابع مصطلحي، دون أن تخص ناقدا بعينه بالدراسة التفصيلية، في حين ينصرف هذا البحث إلى دراسة مفهوم السياق عند محمود شاكر دراسة تحليلية باستقراء نصوصه، وتكشف عن ملامح هذا المفهوم في الممارسة التطبيقية.

٢- دراسة محمد حسونة، **السياق القرآني: أثره وأهميته**، بحث، جامعة سوهاج، كلية الآداب، مجلة كلية الآداب، ع٧٨، ج١، ٢٠٢٦م.

تناولت الدراسة مفهوم السياق القرآني وأثره في توجيه المعنى من خلال البيان عن مفهوم السياق القرآني لغة واصطلاحا ومن خلال البيان عن أهميته بوصفه أصلا من أصول التوجيه والتفسير، وعبر تحليل أثر السياق القرآني في توجيه القراءات القرآنية، وعليه، اقتصرت الدراسة على السياق القرآني دون غيره من السياقات الأدبية والنقدية، فلم تتناول الدراسة إلا السياق القرآني، ولهذا ركزت على مجال التفسير والقراءات بمنهجٍ استقرائي تحليلي بتتبع الآيات والقراءات، مع تحليل لبعض النماذج القرآنية لإظهار أثر السياق في توجيه المعنى.

ومن أبرز النتائج التي وصلت إليها الدراسة أن السياق القرآني يعد أساسيا في فهم النص القرآني، وأن السياق يساهم في ترجيح المعاني وتحديد المراد من الألفاظ، ولهذا له دور مهم في توجيه القراءات القرآنية.

وتختلف هذه الدراسة عن هذا البحث في أنها تناولت مفهوم السياق في إطار قرآني خاص، إذ ركزت على أثره في التفسير وتوجيه القراءات، أما هذا البحث فيتجه إلى دراسة مفهوم السياق مجال محمود شاكر النقدي من خلال تحليل ممارساته في قراءة النص الشعري، كما أنَّ الدراسة لم تتناول العلاقة بين السياق ومفهوم الوحدة في إطار نقدي، بينما يسعى هذا البحث إلى الكشف عن هذه العلاقة وبيان مساهمة السياق في بناء وحدة النص.

يتبين من خلال استقراء هاتين الدراستين أن مفهوم السياق قد حظي بعناية في الدرس العربي، غير أنها اختلفت في منطلقاتها، فالدراسة الأولى اتجهت إلى تأصيل مفهوم السياق في التراث النقدي العربي بالكشف عن سعة جهازه المفاهيمي، فقد عنيت بإظهار حضور السياق في الخطاب البلاغي والنقدي القديم دون تخصيصه بناقد أو ربطه بمفهوم نقدي محدد، في حين قد انصرفت الدراسة الثانية إلى تناول السياق في إطار قرآني خاص، بالتركيز على أثره في التفسير وتوجيه معاني القراءات.

وبالرغم من القيمة العلمية لهذه الدراسات، إلا أنها لم تتجه إلى دراسة مفهوم السياق عند ناقد عربي حديث، كما لم تعالج العلاقة بين مفهوم السياق ومفهوم الوحدة بالبيان عن أبعاد هذا التداخل في بناء النص وتماسكه، ومن هنا تظهر أهمية هذا البحث، إذ يساهم في سد الفراغ من خلال استقراء مفهوم السياق عند الأستاذ شاكر، وتحليل تمثلاته في قراءته للنص الشعري، والكشف عن علاقته بمفهوم الوحدة ودوره في تحقيقها.

التمهيد: السياق في اللغة والاصطلاح

- السياق في اللغة:

جاء في المقاييس: "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْوُ الشيء يقال: سَاقَه يَسُوقُه سَوْقًا. والسَّيِّقة: ما اسْتِيقَ من الدواب. ويقال: سُقْتُ إلى امرأتي صِداقَها، وأسَقْتُه. والسُّوق مُشْتَقَّةٌ من هذا، لما يُساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق. والساق للإنسان وغيره ... إنما سُمِّيَتْ بذلك لأن الماشي يَنْساقُ عليها ... وسُوق الحرب: حَوْمَةُ القتال"[1].

وجاء في لسان العرب في المادة نفسها: "وقوله تعالى: (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد)، قيل في التفسير: سائقٌ يسوقها إلى محشرها ... وأنشد ثعلب:

لولا قريشٌ هلكت معدُّ // واستاق مال الأضعف الأشدُّ

... وفي حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعْنُزًا ما تساوقُ، أي ما تتابَعُ. والمساوَقة: المتابعة، كأن بعضها يسوق بعضًا، والأصل في تساوَقُ تتساوَق، كأنها لضعفها وفرط هُزالها تتخاذل ويتخلّف بعضها عن بعض"[2].

وجاء في أساس البلاغة في المادة نفسها: "ومن المجاز: ساق الله إليه خيرًا. وساق إليها المَهرَ. وساقت الريح السحاب ... وتساوقت الإبل: تتابعت. وهو يسوق الحديث أحسن سياق، ... وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده. والمرء سيِّقة القدر: يسوقه إلى ما قُدِّر له لا يعدوه ... وولدت فلانة ثلاثة بنين على ساقٍ واحدٍ: بعضهم في إثر بعض ليس بينهم جارية"[3]، إذن، فقد كَثُرَتْ دلالاتُ استعمالِ مادَّةِ السياق في المعجم العربي، فجاء في بعض دلالاته اللغوية على صفةٍ يأتي عليها الكلام أو الأشياء متتابعةً على سيرٍ واحدٍ، أو على مِشيَةٍ واحدةٍ لا تختلف أو على نفي صفةِ التساوقِ والتتابعِ، ومن هذه الصفة أُخِذَ المعنى الاصطلاحي للسياق.

- السياق في الاصطلاح:

يُعَدُّ السياقُ عنصرًا حاسمًا في تحديد المعنى وإثرائه؛ إذ لا يقتصر دوره على توجيه الدلالة، بل قد يُفضي أحيانًا إلى إقصاء بعض المعاني التي يتيحها اللفظ في ذاته، فقد ينقل المعنى إلى آفاقٍ بعيدةٍ لا يُفصح عنها ظاهرُ القول عند النظرة الأولى،

---

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، راجعه وعلّق عليه: أنس الشامي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٤٣٢، مادة: **(س و ق)**.

[2] ابن منظور، لسان العرب،دار صادر، بيروت، ط١١، ٢٠٢١م، ج٧، ص٣٠٤، مادة:**(س و ق)**.

[3] الزمخشري، أساس البلاغة، مراجعة: محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، بيروت،٢٠٠٩م، ص٤٢٢.

ومن هذا المنطلق، تتجلّى أهميةُ السياق، إذ لا يتحقق التمثُّلُ التامُّ لمعنى المتكلِّم إلا في ضوئه، بوصفه أحدَ المكوِّنات الرئيسة في العملية التواصلية المُعينة على فهم معاني النصوص.

وبناءً على أهميَّةِ السياق في المجالات العلمية والأدبية، تَعَدَّدَتْ تعريفاته الاصطلاحية وتَنَوَّعَتْ مَجالات استعماله؛ لأهمِّيَّتِه في تحديد الدلالة، فيوجد السياق الحرفي، والسياق الموقفي، والسياق الاجتماعي، والسياق الثقافي، والسياق الإنساني، ويدلُّ كلٌّ منهم على خصيصةٍ مُعَيَّنَةٍ من السياق، وبالنَّظَرِ إلى تعريفاته تتضح كثرتها.

تشترك تعريفات السياقِ الاصطلاحية في التعبيرِ عن نوْعَيْن من أنواعه: السياق اللغوي أو النصّي، والسياق المقامي أو الحالي، وهو معروف عند القدماء، يقول مسلم بن يسار (ت: ١٠٠هـ): "إذا حدَّثت عن الله حديثًا فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده"[١]، وجاء عند الشافعي أيضًا (ت: ٢٠٤هـ) في قوله: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها ... وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عامًا ظاهرًا يراد به العام الظاهر، ويستغني بأول هذا منه عن آخره، وعامًا ظاهرًا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه"[٢]، وقول الشافعي "فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه" أي أنَّ المُخاطَبَ الجاهليَّ يفهم المعنى الخاصَ من الكلامِ الذي يدل على المعنى العامِ؛ لأنَّ القرائن السياقية دَلَّتْ على المعنى الخاص، ويقول الطبري (ت: ٣١٠هـ): "غير جائزٍ صرفُ الكلام عما هو في سياقه إلى غيره إلا بحجةٍ يجب التسليم لها، من دلالةٍ ظاهرةٍ لتنزيلٍ، أو خبرٍ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، تقوم به حجة"[٣]، وهذه النصوص تدل على علمهم بمفهوم السياق اللغوي والمقامي، "كلمة سياق قد مرَّتْ بتطوراتٍ عديدةٍ حتى وصلت إلى معناها الذي نعرفه اليوم وأن كتب التفسير وكتب الأصول من أوائل الكتب التي تَبلوَر فيها معنى السياق كمصطلح، كما نجد ذلك في الرسالة للإمام الشافعي"[٤]،

---

[١] أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ج٢، ص٢٩٢.

[٢] محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م، ص٥١ و ٥٢.

[٣] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م، ج٢، ص٤٨٠.

[٤] خلود العموش، الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ٢٠٠٥م، ص٣٥.

ويُؤكِّدُ استعمالهم على فهمِ مفهوم السياق.

أما في الدراسات النقدية الحديثة فيُعَرِّفُ جورج يول (George Yule) السياق اللغوي بقوله: "هناك أنواع مختلفة من السياق، النوع الأول يُفضّل وصفه بالسياق اللغوي (Linguistic Context) ويُعرف أيضًا بالنص المشترَك (Con-text) والنص المشترَك للكلمة هو مجموعة الكلمات الأخرى المستخدمة في العبارة نفسها أو الجملة، هذا النص المشترك المحيط بالمفردة له تأثير قوي على ما نعتقده من معنى الكلمة"[١]، فهو يؤكِّدُ على قدرة السياق اللغوي في تحديدِ دلالاتِ المعاني، ويقول محمد علي الخولي واصفًا السياق اللغوي: "هو البيئة اللغوية، التي تحيط بصوتٍ أو فونيمٍ أو مورفيمٍ أو كلمةٍ أو عبارةٍ أو جملةٍ"[٢]، فيمكن القول إن السياق اللغوي يظهر في العلاقات المتداخلة بين الدلالات التي جاءت بها الألفاظ، فتحدد بعضها بعضًا، فقد تلغي من بعضِ دلالاتِ الألفاظ؛ لأن سياق الجملة لا يحتمل ذلك المعنى مثلًا، وقد تزيد من دلالة اللفظة نفسها؛ لأن السياق اللغوي يُعطي اللفظةَ شيئًا حقيقًا بأن يُوجد في دلالاتِ نَصِّها، "ويُلاحظ ... أن النص هو الكلمة أو العبارة التي تقع في سياقٍ، والسياقُ هو الذي يؤثِّر في النص، بمعنى آخر أن النص يتنوع ويتعدد معناه وفقا للسياق"[٣]، فالسياق اللغوي أحد مُحدِّدات الدلالة بما يُظْهِرُه من قرائنَ سياقيةٍ تُعين في تحديد دلالات النص.

أما السياق المقامي فيصفه جورج يول (George Yule) قائلًا: "هنالك عدة كلماتٍ في اللغةِ لا يمكن تفسيرها على الإطلاق ما لم يُعرف الموقف الذي قيلتْ فيه، أي بمعنى آخر لابد أن يكون السياق المقامي معروفًا للمتكلم"[٤]، ومنها: أسماء الإشارة، والضمائر، والأعلام، فهذه الكلمات لا يُمكن فَهمها بغير سياقٍ مقاميٍّ يُجلي معناها؛ لأنّها "تحوي عددًا كبيرًا من التعابير ... التي تعتمد في تفسيرها على السياق المقامي الذي تلفظ بها فيه"[٥]، وعليه، فإنَّ هذا التعريف يُفضي إلى إدماجِ السِّياقِ المقامي في صميمِ اللغة؛ إذ أصبح عنصرًا أصيلًا في التشكُّل الذهني للغة لدى الإنسان، وفي عَمَلية إدراك النص والتأويل التي تحكمُ فهمَ اللغات وتأويلها، وبشكل

---

[١] جورج يول، دراسة اللغة، ترجمة: حمزة المزيني، دار جداول للنشر، ٢٠١٧م، ص١٢٩.
[٢] محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص١٥٦.
[٣] كمال علي بابكر عبد العزيز وعبد المنعم الكاروري، الإطار النظري لمفهوم السياق، مجلة دراسات حوض النيل، مجلد٧، عدد١٣، ٢٠١١م، ص٩٧.
[٤] جورج يول، دراسة اللغة، ترجمة: حمزة المزيني، دار جداول للنشر، ٢٠١٧م، ص١٣٠.
[٥] المصدر نفسه، ص١٣٠.

أدق يُعبّر لويس عوض عن السياق المقامي وفْق مفهومِ لينرد هارتمان (Leonard Hartmann) بقوله: "إن السياقَ المقامي مجموعةٌ من البنى التي تلتقي فيها العناصر اللغوية مع العناصر غير اللغوية، وأنه لكي تتحقق النهائية -أي الفهم الصحيح للنص- يجب البحث خارج نطاق الجملة والعبارة، ذلك أن النهائية هي المجال الحقيقي لمعرفة الأحداث التي تتحكم في عملية الاتصال"[١]، ويُعرِّفُ جاك دريدا (Jacques Derrida) السياقَ بِشِقَّيْه، اللغوي والمقامي، قائلًا: "ما يصاحب الوسط الذي يظهر فيه نصٌّ ما، والذي لا يتشكّل من وضعيةٍ ثقافيةٍ أو اجتماعيةٍ أو سياسيةٍ فحسب، وإنما من مجموعِ النصوصِ والعلاماتِ المتحركةِ حوله ووراءه -إذا جاز القول- وبهذا المعنى يتحدث أحيانا عن "نص واسع" بمعنى سياق"[٢]، يمكن القول بناءً على الآراء السابقةِ، إن أغلبَ تعريفات السياق المقامي تدل على أنَّه جميع الملابسات التي لا تتعلق بالسياق اللغوي، فهو كل الملابسات التي تتعلق بالمقام بمفهوم المقام العام الذي يشمل الثقافة، بل يشمل أيضًا الحضارة والإنسان وطرق تعبيره على ما نألفه مما نفخر به على سبيل المثال ويكون مظنةَ مدحٍ، أو نهجو به ويكون مظنةَ ذمٍ مثلًا بشكل أوسع، وبالمفهوم الذي يشمل الحادثة أو سبب النص، ويشمل المكان والزمان بشكل أضيق.

إذن، يُوضِّحُ السياقُ المقامي، كاللغوي، المعنى الدقيق الذي يريده المتكلم، بل هو أحد أجزاء عملية التواصل، لا يقوم فهم المعنى الدقيق إلا به، فأيُّ رِسالةٍ تحمل معنى دقيقًا يريده المُتَكَلِّم، والسياق المقامي يُجلي ويُوضح مراده، والمثال يوضح ذلك، فلو قال في عصرنا شخصٌ لفظةَ "سيارة" لكانت إحدى الدلالات التي يُمكن أن يقصدها المتكلمُ هي السيارة التي نعرفها اليوم، لكن لو قال شخصٌ جاهليٌّ ذاتَ اللفظةِ، فإنّا تلقائيًا نُخرج دلالةَ السيارةِ التي نعرفها الآن من مَظْنونِ دلالاتِ لفظِه، فالسياق المقامي، كالسياق اللغوي، يحدد المعنى ويزيده، لكنَّ كلَّ سياقٍ منهما له طريقته في الكشفِ عن المعنى؛ إذ لا يَتَأَتَّى الكَشْفُ عن المعنى الدقيقِ إلا بتضافرِ قرائن السياقِ اللغويِّ والمقامِيِّ، فالمعنى الذي يراد أن يعبَّر عنه واحد، لكن الألفاظ التي يستعان بها للتعبير كثيرة، وكل لفظةٍ لها طبيعةٌ تجعلها تحتمل عدة معانٍ، ثم إن هذه الألفاظ ذاتها، لا تعطي معنى كاملًا إلا في تراكيبٍ لغويةٍ، وهذه التراكيب لها

---

[١] ويس عوض، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمين، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص٧٦.

[٢] كمال علي بابكر عبد العزيز وعبد المنعم الكاروري، الإطار النظري لمفهوم السياق، مجلة دراسات حوض النيل، مجلد٧، عدد١٣، ٢٠١١م، ص٩٠.

طبيعة تحدد المعنى الدقيق، وكل تركيبٍ يُحتمل توجيهه إلى عدة معانٍ، فالسياق اللغوي والمقامي يحددان كثرة الاحتمالات التي توردهما طبيعة الألفاظ وطبيعة دخولها تحت تركيبٍ ما، فلهذا كان للسياقين اللغوي والمقامي أهمية في تحديد دلالات النص، وهذه الألفاظ والتراكيب هي محاولةٌ من المتكلم ترجمة ما يدور في خاطره بأدوات البيان، أي الألفاظ والجُمَل والتراكيب.

وتجدر الإشارة إلى أن السياقيْن المقامي واللغوي، لا ينفصلان إلا في الذهن، لكنهما في الوجود -أي في النص- هما شيء واحد، يخدمان المعنى التي يريده المتكلم.

المبحث الأول: مفهوم السياق عند شاكر

يُمكن القول أن منهج الأستاذ شاكر في تذوق الكلام، ومنهجه في قراءة الشعر، يعود أغلبه إلى قاعدةٍ مهمةٍ في الكلام، وهي أن الكلامَ هو دلالةٌ على حال المتكلم، ففي الكلام تُوجد عدة دلائل تدلُّ على صاحبه وغرضه، كالحُبِّ والبغض، والشكِّ واليقين، والصدق والكذب، وكثيرٍ غيرها من الأغراض تَجولُ "في النفس ليلا ونهارا، في مستقر الحلقة المفرغة، (المكونة من العقل والقلب والنفس والقدرة على البيان) كل منها يطالب ((القدرة على البيان)) أن تهيئ نفسها وتتشكل، وأن تعبِّئ نفسها تعبئةً صالحةً عند الحاجةِ للدلالةِ على وجوده وحضوره في الضمير قديمًا أو متجددًا، ظاهرًا أو باطنًا، مجملًا أو مفصلًا"[(1)]، فمنهج الأستاذ شاكر يعود إلى استبطان الدلالات الدَّالَّةِ على المُتَكَلِّمِ وعلى غَرَضِه.

إذن، بما أن الكلامَ يحمل من الدلالاتِ ما يدلُّ على المتكلِّمِ، فعمليةُ الإبانة ليست كلامًا مُتَجَرِّدًا عن نفس صاحبها؛ لأنَّ المعاني التي يُبين عنها المُتَكَلِّمُ عاشتْ حياةً طويلةً في صاحبها، وهذه الحياة تأخذ من عقلِ صاحبِها ونفسِه ما يجعلها تَحْمِلُ خصوصيةً معينةً، فالكرمُ على سبيلِ المثالِ، معنى عامٌ، يشترك فيه البشر، لكن إذا جاءت إبانةُ فلانٍ من الناس عند الكرم، أصبح كرمًا معيّنًا شيئًا من التعيين؛ لأنه يحمل من صاحبه كل ما تَكَوَّنَ في نفسه وعقله من تجاربه وإدراكه لمعنى الكرم العام ومفهومه، مضافًا إليها قواعد الكرم المُتَعارَف عليها بين الناس، فالعلاقة في البيان عن أي معنى علاقة عموم وخصوص، عموم من حيث قواعد المفهوم أو المعنى العام التي بها يفهم الناس معنى الكرم، وعلاقة خصوص من حيث شعور صاحب

---

[1] محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، قرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ص١١٦٢.

الكلام بهذا المعنى من سابق حياته العقلية والنفسية ومجمل تجاربه؛ "فإن الصُّوَر الذهنية التي يوقظها اللفظُ مُختلفةٌ باختلاف الأفراد، وسبب ذلك اختلاف الناس في تصوراتهم، ومنازعهم، ورغائبهم، وميولهم"[١]، وأرجِّحُ أن هذا السبب هو إحدى الأسباب التي جَعَلَتْ أرسطو يقول إن الأدبَ أدقُّ تأريخًا من علم التاريخ[٢]؛ لأن الأدب يذكر التاريخ المسكوت عنه، أو التاريخ الذي لا يستطيع علم التاريخ أن يحوطه بالصفة، وهذه طبيعة مهمة في البيان، ويرتكز عليها الأستاذ شاكر في قراءته للشعر خصوصًا وفي قراءة الكلام عمومًا.

إذن، وبما أنَّ أدواتُ الإبانةِ هي الأحرف والألفاظ والجُمَل، فهي تحمل دلالاتٍ عديدةٍ تدل على المتكلِّمِ وغَرَضِه، بل "هي قادرةٌ ... أن تُحَمِّل الأحرفَ والكلماتِ والجُمَلَ ضروبًا أخرى من الدلالات الخفية والظاهرة، والكامنة والمنسابة، تدل على هيئة صاحبها، وعلى حركاته عند إنشاء الكلام ... [وعلى] مئاتٍ لا تعد من السمات الظاهرة والخفية التي يتميز بها متكلمٌ عن متكلمٍ ... وهذا شيء تحسه أحيانًا إحساسًا خاطفًا في الشعر وغير الشعر"[٣]، فالأحرفُ والألفاظُ والجُمَلُ، يحملون ما يدلُّ على أدَقِّ تفاصيل المتكلِّمِ، فيَنطَلِقُ الأستاذ شاكر من هذا المنطلق في محاولته استنباطَ الدلالاتِ الدالّةِ على المُتَكَلِّمِ في الشعر وغير الشعر، وفهمَهما على وجهٍ يَتَّسِقُ مع دلالاتِ أحداثِ الكلامِ والأسبابِ التي من أجْلِها وُجِدَ الكلام وجَعَلَتْ صاحبها يُعْرِب عما يشعر به، ولهذا يَحْرِصُ الأستاذ شاكر أن يَجْمعَ كل الدلالاتِ التي تُعين على تصوّر الكلام على وجهه الصحيح، بل يُحاول أحيانًا أن يُخَرِّجَ تصوراتٍ تكون هي أشبه وأقرب مما يعلمه عن المُتَكَلِّم أو تكون متوافقةً مع ما يعلمه عن المتكلّم بقرائن النصِّ السياقيةِ، فوَضْعُ دلالاتِ الكلامِ على مُرادِ المُتَكَلِّمِ من شأنه أن يجعَلَ النصَّ مُتَّسِقًا.

إذن، يحمل السياق أهميَّةً كبيرةً في منهجِ الأستاذ شاكر؛ لأنَّ تمام التمثُّلِ لا يقوم إلا بفَهْمِ المعنى الذي يقصده المتكلم، والدلالات التي يأتي بها السياق مهمةٌ في توضيح المعنى الذي أراده المُتَكَلِّمُ، إذ إنَّ سوء تأويلِ صِفَةٍ واحدةٍ قد تجرّ بلوازِمِها

---

[١] جمال صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، ج٢، ص٣٩٨، باب الميم، **(المعنى)**.

[٢] انظر أرسطو، فن الشعر، ترجمة وتحقيق: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٥٣م، ص٢٦.

[٣] محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، قرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ج٢، ص١١٦٤.

صفاتٍ عديدةً لا تَتَّسِقُ مع دلالاتِ القصيدةِ ولا تتوافق مع المعنى الشعري، ولهذا يُؤَكِّدُ الأستاذ شاكر أن تقسيم الشعر تحت أغراضٍ تشمل القصيدة كاملةً مضرٌ، على نفعه في التقسيم والتبويب، فعلى سبيل المثال يقول الدكتور عبد الله الطيب في معرض كلامه عن بحر المديد واصفًا صفات هذا البحر: "ليس من غريب المصادفات، أن القصيدتين اللتين اختارهما الأوائل منه، كلتاهما مرثيتان ثائرتان مفعمتان بروح الانتقام"[١]، وهذا الوصف الذي أطلقه على قصيدة "إن بالشعب الذي دون سلع" ليس مطابقًا لدلالات القصيدة كما يرى قارئ "نمط صعب ونمط مخيف" للأستاذ شاكر؛ إذ لا يوجد فيها إلا بيت واحد ونصف بيت يَصِحُّ وصفهما بالرثاء وبروح الانتقام المفعم، فتعميم هذه الصفة على القصيدة كاملة يجر عليها من الصفات ما يزيدها غموضًا، وفي معرض تقسيم الشعر إلى أبواب يقول الأستاذ شاكر: "وهذا الإلف إذا غلب، فربما أضر ... هو حري أن يقود الألسنة عِجالًا إلى منح القصائد صفاتٍ ليست لها ... فيصير ذلك حائلًا بيننا وبين إدراك حقيقة ما حرّك الشاعر حين ترنّم، وحقيقةِ الأصل الذي بنى عليه أبيات قصيده، ثم تجرّنا هذه السمات التي نسم بها القصائد، إلى نعوتٍ يبرأ منها القصيد ونغمه"[٢]، فمنهج الأستاذ شاكر يحاول أن يجمعَ قرائن النص السياقية التي تُعين على إثباتِ وتحقيقِ دلالاتِ ألفاظِ النصِ، ولهذا يحمل أهميَّةً كبيرةً في منهجه.

إذن، السياق عند الأستاذ شاكر، يدخل في كل ما يُعين على توضيحِ معنى لفظةٍ ما، أو تركيبٍ ما، أو ترجيحِ خبرٍ على خبرٍ، بل هو أوسع من هذا المعنى المخصوص، فالسياق يدخل عنده في رواية القصيدة وما يتفرّع من هذه القضية، ويدخل أيضًا في كل ما يمكن أن يوضّح دلالةً تعين في فهم القصيدة، فأحيانًا يرد تأويلًا ما؛ لأنه ليس مما يدخل في طبيعةِ بيانِ الشعراءِ[٣]، بل وأحيانًا يرد تأويلًا ما؛ لأنه ليس مما يعهده البشر في الفخر أو الرثاء أو غيرها من الأغراض[٤]، فيمكن القول أن السياق عند الأستاذ شاكر يدخل في كلِّ ما يُعين على توضيحِ دلالاتِ الكلامِ أو النصِ.

---

[١] عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، مطبعة الكويت، ١٤٠٩هـ، ج١، ص٩٥.

[٢] محمود شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، دار القدس، ط١، ١٩٩٦م، ص١٤٠.

[٣] انظر محمود شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، دار القدس، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٥٧ و٢٥٨.

[٤] انظر محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، قرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ج٢، ص٩٠٣.

يستعمل الأستاذ شاكر السياق ليدعم فرضيته في معنى ما، أو في دلالةِ لفظةِ ما، أو في ترجيحٍ يراه في نصٍّ ما، وفي هذا المبحث سأحاول جمع طرق استخدامه للسياق بما يؤكد على هذا الأصل في قراءة الأستاذ شاكر للكلام شعرًا كان أو نثرًا، وبها يتضح مفهوم السياق عند الأستاذ شاكر وطرق استخدامه إن شاء الله.

تُحاولُ أيُّ قراءةٍ للنصِّ الشِّعري وَضْعَ الدلالات الصحيحة للنص التي يُظنّ ويُرجّح أن النص بألفاظه وتراكيبه خُلِقَ لها، أي خُلِقَ لأجلها، وتندرج قراءةُ الأستاذ شاكر للنصِّ الشعري ضمن هذا النمط من المعالجة ، فقبل أن يشرع في تحليل القصيدة الجاهلية يبحث في صحة نسبتها إلى شاعرٍ جاهليٍّ، لكي تأخذ من لوازم هذه النسبةِ، ففرقٌ كبيرٌ بين قصيدةٍ قالها جاهلي وأخرى قالها شاعرٌ في عصر الإسلام؛ لاختلاف العصرين؛ إذ يرى الأستاذ شاكر أنَّ قلةَ الحرصِ في نسبتِها مؤدٍ إلى غموضٍ في تصوّرِ القصيدة.

يُمكنُ القول أيضًا، إنَّ التهاون في تحقيقِ نسبةِ القصيدة بين شاعرين عاشا في العصر نفسه مؤدٍ إلى غموضٍ أيضًا؛ إذ إنَّه "يُدْخِلُ الخلط والفساد في تمييز شاعرٍ من شاعرٍ، وفي الكشف عن خصائص بنية كل شاعرٍ في شعره"[١]، ويمكن أن تُقدّرَ خطر قضيةِ نسبةِ القصيدةِ في توجيه دلالاتها إن اختلفت نسبة القصيدة بين شاعرٍ وشاعرةٍ مثلًا وإن عاشا في العصر الجاهلي، وليست أهمية النسبة هنا لأجل تحقيق النسبة فحسب، إنما لكي يُخرِّجَ من لوازم هذه المعرفة دلالاتٌ تكون هي الأكثر احتمالًا والأكثر شَبَهًا بمعاني القصيدة مع ما جُمِّعَ من قرائن النص السياقية، وهذا الحرص داخلٌ في صميم تحليل القصيدة؛ لأنّه قد يُؤدّي إلى تغييرٍ في دلالاتِ النّصِّ، فهو نوع من أنواع البحث في السياق.

واستنادًا على نفس المبدأ، يستعمل الأستاذ شاكر السياق في القضايا التاريخية أيضًا، فقبل أن يَحْكُمَ في القضيةِ يَجْمعُ لها ما يُظهرها كما هي في حقيقتها، وللتأكيد على هذا الأصل أضرب مثلًا من إحدى مقالاته في قضيةٍ تاريخيةٍ، وهي قضية عبد الله بن سبأ، وتدخّل اليهود بالإفساد في شؤون المسلمين، فالدكتور طه حسين يُنفي خبر عبد الله بن سبأ اليهودي، لأنَّ الدكتور طه حسين يرى أنه من المُستبعد أن يعبثَ بدينِ المُسلمين ودولتِهم رجلٌ فَرْدٌ جاءَ من صنعاء، قد كان يهوديًّا ثم أسْلَمَ مَكْرًا[٢]، فيبدأ الأستاذ شاكر شارحًا أصولَ الاستنباط من علم التاريخِ، مدللًا

---

[١] محمود شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، دار القدس، ط١، ١٩٩٦م، ص٤٦.

[٢] انظر طه حسين، الفتنة الكبرى. ومحمود محمد شاكر، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، قرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ج١، من ص٥١٥ إلى ص٥٤٠.

على أصلٍ من أصول منهجه في النظر إلى حقائق التاريخ: "والتاريخ لا يُكتب بالتحكّم، وإنما يُكتب بالرواية، ثم بالاستدلال، ثم ببذل الجهد في سد الفجوات، وسبيل ذلك أن تأخذ من الماضي أسبابًا وعللًا وحوادث ذات خطر، فإن استقامت أن تمتد معك إلى الحاضر الذي تؤرّخه، فهي حقيقةٌ بأن تكون شيئًا من التاريخ يوشك أن يكون حقًّا كله أو بعضه"[١]، والذي يقرأ وصْف الدكتور طه حسين بغير إحاطَةٍ بعلم التاريخ، يَتَخَيَّلُ في كلامه شيئًا من الحقيقة، فإن رجلًا يهوديًا وحيدًا غريبًا أتى من صنعاء حقيقٌ بأن يكون تأثيره ضعيفًا، فليس منطقيٌ أن نُصدّق قولَ الرواةِ عنه وعن تأثيره، لكن الأستاذ شاكر يصف الأمر وصفًا مخالفًا لوصفِ الدكتور طه حسين، واضعًا بعض حقائق التاريخ التي حصلت ليتَّضِحَ تصوّر قضية عبد الله بن سبأ اليهودي وتأثيره، فأوْرَدَ الأستاذ شاكر أخبارَ كيدِ اليهودِ في المسلمين وأخبارَ مكرهم بالأوس والخزرج بعد أن ألّف الله بين قلوبهم بنبيّنا الكريم، ثم يقول بعد ذكرِ أخبارِ[٢] كيدِهم بالمسلمين: "وأنا لست أروي لك هذا إلا لتقف على كيد يهود كيف كان؟ ... ولتنظر لِمَ كانوا يحبون أن تظل هذه العداوة حيةً متوقدةً ليأكلوا من ثمراتها مالًا وغلبةً وسلطانًا على العرب؟ ولتقارن هذا كله بما لا يزال يجري إلى أيامنا هذه على يد الشرذمة الخبيثة من بني إسرائيل"[٣]، ثم يقول الأستاذ شاكر مؤكِّدًا أنَّ الكيدَ أصلٌ في نفوسهم: "ولا تزال تمضي من حدثٍ إلى حدثٍ ... واليهود رأس ذلك كله ... إلى أن تنتهي إلى خبر اليهودية التي وضعتْ السم في الشاة ودعتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر، فأكل من شاتها ثم نبئ أنها مسمومة فَلَفَظَهَا"[٤]، وبعد أن ذَكَرَ من أخبارهم ما يدل على أصلٍ في نفوس اليهود يقول: "فما معنى هذا كله؟ معناه أن اليهود لم يفتر لهم لسانٌ ولا يدٌ ولا غشٌ ولا غدرٌ ولا خديعةٌ ولا ضغنٌ منذ ظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن هذه الشحناء ... كانت عصبيةً يهوديةً محضًا، وخليقةً مركّبةً في طباع هذا الجنس من البشر"[٥]، فأبدى الأستاذ شاكر حُكْمَه بعْدَ أن جَمَع من الدلائل التاريخية ما يُعينُ على تصوّرِ القضيةِ على حقيقتها، فيتحرّى الأستاذ شاكر في جَمْعِ القرائن السياقية، ويعطيها أهميةً كبيرةً، فهي أصلٌ من أصولِ الأستاذ

---

[١] المصدر نفسه، ص٥٢٥.

[٢] انظر كامل الأخبار في محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، قرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ج١، ص٥٢٥ و٥٢٦.

[٣] المصدر نفسه، ص٥٢٧.

[٤] المصدر نفسه، ص٥٣٠.

[٥] المصدر نفسه، ٥٣٠.

شاكر في النظرِ إلى القضايا، يستعمله في علم التاريخ كما يستعمله في الأدب والقضايا التي تتعلق به، متحرّيًا الدقةَ، مستجمعًا من الأخبار ما يدعم فرضيته ليضع القضية على حقيقتها، ثم يشرع في التحليل ثم في الحُكم، سواء أكانت القضية في الشعر أم في التاريخ، وهذا داخلٌ في مفهوم السياق.

ولم يَقْتَصِرُ مفهوم السياق عند الأستاذ شاكر في القضايا التاريخية؛ إذ يستخدمه أيضًا في الأدب وقضاياه، فقصيدة الكتاب ((نمط صعب ونمط مخيف)) "إن بالشعب الذي دون سلع" قصيدةٌ جاهليةٌ، وأغلب القصائد القديمة جاءت عن طريق الرواية، فالبحث في صفة الرواية ومفهومها مُهِمٌّ قبل الشروع في تحليل القصيدة، يقول الأستاذ شاكر: "الشعر الجاهلي المحض له مشكلةٌ قائمةٌ برأسها، يَشرَكُه في بعضها الشعر في صدر الإسلام، وكلاهما يعتمد اعتمادًا يكاد يكون تامًّا على الرواية المتسلسلة في بوادي الجاهلية وحواضرها، ثم في بوادي الإسلام وحواضره، إلى أن يصل إلى عهد رواية العلماء ... وهذه الفترة واقعة ما بين سنة ١٥٠ قبل الهجرة تقريبا، إلى نحو سنة ثمانين بعد الهجرة ... تُعرِّض الروايةَ المتنقلة عن طريق السماع والحفظ، لعيوبٍ لا يمكن اتقاؤها"[١]، الفترة الواقعة بين شعرِ الشاعر وبين تقييد العلماء، فترةٌ طويلةٌ، فقد يصيب الروايةَ المتنقلةَ في هذه الفترة عوارضٌ عديدة؛ ولهذا يحرص الأستاذ شاكر على تقدير بعض العوارض، فقد يسقط بيتٌ يُغَيِّرُ المعنى من الرواية، هذا من جِهَةِ فترة الرواية حتى وصلت إلى عهد رواية العلماء وتقييدهم ما يروون، أما من جِهَةِ الرواية ذاتها، فيقول الأستاذ شاكر في صِفَتِها: "هي لم تكن صناعةٌ معروفةٌ محدودةٌ، لها رجالٌ معروفون مميزون يتقلّدون اسمها، ويقصدهم القاصدون طلبًا لما عندهم من محفوظ الشعر والأخبار، بل كان أمر ((رواية)) الشعر والأخبار موكولًا كله إلى فطرة الناس في التلقّي والتذوق"[٢]، يحرص الأستاذ شاكر أن يُبينَ عن طبيعة الرواية ذاتها، ففي بدايتها لم تكن صناعة لها رجالٌ مُخْتَصُّون بها، فدقَّةُ الروايةِ إذن مرهونةٌ بحرصِ مُتلقِّيها، فطبيعة الرواية الشَّفَهية ذاتها قد تُسقِطُ بيتًا من القصيدةِ أو تُزيدُ؛ لأنها تعتمد على حرصِ المُتَلَقِّي وذاكرته، إلى أن وصلت إلى عهدِ العلماء، ومن ثَمَّ إلى عهدِ تقييدِ الرواية، فيرى الأستاذ شاكر أن طبيعة الرواية الشَّفَهِيَّة تُوْجِبُ الحرص والتحري.

أما من جِهَةِ مكان الرواةِ وتنقّلهم، فهي جزيرة العرب، وجزيرة العرب أرضٌ

---

[١] محمود شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، دار القدس، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٨.

[٢] المصدر نفسه، ص٣٨.

واسعةٌ، يتنقّل فيها الرواة للتجارة وطلبِ العَيْشِ، فـ "كان ما يحفظونه من الشعر ينتقل معهم حيث ساروا، فيأخذ بعضٌ عن بعض ما أنشد، ويحدّث بعضهم بعضًا بما سمع أو حفظ"[١]، فيؤكّدِ الأستاذ شاكر أن رواية الشعرِ الجاهلي بقيتْ فترةً طويلةً تعتمد على الروايةِ الشَّفَهِيَّةِ، ولم يكن لها أناسٌ متخصصون بالقيام عليها، وهي تنتقل مع انتقال رواتها في جزيرة العربِ الواسعة، وهي تبقى ببقائهم وتفنى بذهابهم[٢]، فصفة الروايةِ تُعرِّضُ النَّصَّ إلى عيوبٍ عديدة؛ لأنه من المُرَجَّح أن تعرض للقصائد مشاكل عديدة وهذا حال روايتها ورواتها، وفي التحري في طبيعة الرواية دليلٌ على هذا الأصل في منهج الأستاذ شاكر في قراءة الشعر، فهو يضع القضية على حقيقتها أولًا، ثم يشرع في تحليل القصيدة، مستعينًا بما قرّ في نفسه عن القضايا التي تتعلق بالقصيدة، لكي يحدد دلالات القصيدة التي يريد تحليلها بما هو أشبه بمعانيها وفقًا لما استخرجه من حقائق، ووفقًا للوازم هذه الحقائق.

ينصرفُ ما تقدَّم وصفُه إلى أحوالِ رُواةِ البادية، أمّا روايةُ العلماء فلها سماتٌ مغايرةٌ تستوجبُ النظرَ فيها على حدة، فقد كانوا في آخرِ أوَّلِ قرنٍ من الهجرة، "لقوا في رحلتهم رواةً مختلفين من أهل البادية، فسمعوا فحفظوا، أو قيدوا ما سمعوه، فربما سمع الرجل منهم القصيدةَ من رجل أو رجلين أو ثلاثة من رواة البادية، بين مكثرٍ منهم ومقِلٍّ، وحافظٍ متقنٍ وحافظٍ غير متقنٍ، فتختلف عليه القصيدة في تمامها أو نقصانها، وتختلف بعض ألفاظها، ويختلف أيضا ترتيب أبياتها"[٣]، فصِفَةُ روايةِ العلماءِ تختلفُ؛ لسَبَبَيْن: أولهما يتعلَّقُ بصدْقِ تَحَرِّي العالِمِ نفسِه، وثانيهما مُتَعَلِّقٌ براوي القصيدةِ من البادية، فقد يكون الشاعر بعيدًا من راويةِ البادية، وقد يكون الشاعر أو قصيدته غير مشهورة، وقد تطول القصيدة بحيث يصعب حِفْظُها، وقد يكون راوي البادية قليلَ الحِرْصِ أو طالبًا لحاجةٍ فيُكْثِرُ في أبياتِ القصيدة[٤]، فلهذين السببين تأثيرٌ كبيرٌ على دِقَّةِ رواية العلماء للقصائد القديمة، فمنهجُ الأستاذ شاكر الذي يتحرى الدقةَ في الدلالة، يتعاملُ بحرصٍ مع الرواية لتقديره العوارض التي قد تعرض في رواية القصائد القديمة.

---

[١] المصدر نفسه، ص ٣٩.
[٢] انظر المصدر نفسه، ص٣٩.
[٣] المصدر نفسه، ص٣٩.
[٤] انظر المصدر نفسه، ص٤٠.

أما على مستوى ألفاظِ القصيدةِ، فيستعمل الأستاذ شاكر رأيه في قضيةِ الروايةِ الشَّفهيةِ للقصائد القديمةِ، لتعليل خروجه عن روايةِ الثِّقاتِ في تفضيله لفظ ((سباع الطير)) على لفظ ((عتاق الطير)) من البيت الأخير في قصيدة ابن أخت تأبّط شرّا:

(٢٦) وَسِبَاعُ الطَّيْرِ تَهْفُو بِطَانًا // تَتَخَطَّاهُم فَمَا تَسْتَقِلُّ

يقول: "و((سباع الطير)) هي رواية كتاب التيجان وحده، أما سائر الكتب فتروي: ((وعتاق الطير))، وقد آثرتُ الرواية الأولى، على ما في كتاب التيجان من الآفات"[١]، ويرى الأستاذ شاكر أن معنى البيت يَفسد إن أثبتَّ رواية خَلَفٍ الأحمر (ت: ١٨٠هـ) ((عتاق الطير))، ثم يقول الأستاذ شاكر: "وأظنّه مما أخطأ فيه خلف الأحمر، لإلف لسانه ذكرَ ((عتاق الطير)) في الشعر، وربّما زلَّ الراوي الثقة المتقن بالإلف، فأخذ الناس عنه ما لا يصحّ، فانتشر فيهم. وكأنّ هذا منه"[٢]، ففسادُ المعنى بروايةِ خَلَفٍ الأحمر، وفَهمُ الأستاذ شاكر لطبيعةِ الروايةِ الشَّفهيةِ للقصائد القديمةِ، يَسَّرا له إثبات رواية كتاب التيجان لابن هشام على ما في هذا الكتابِ من الآفات، فتقديرُ الأستاذ شاكر لطبيعة الروايةِ عَلَّلَتْ له خُرُوجَه عن الرواية الأوثق والأشهر.

تَسْتَمِرُ عوارضُ الرواية الشَّفَهِيَّةِ للقصائد القديمة من رواةِ البادية إلى الرواةِ العُلماء، وُصولًا إلى عصرِ تدوين العلوم، وفيه قُيِّدت الروايات، ويقع عصره تقريبًا من آخر القرن الأول إلى آخر القرن الثالث، مئتا سنةٍ أو تزيد[٣]، تعترض الروايَةُ المُقَيَّدَةِ مثل ما تَعَرَّضَتْ له رواية الباديةِ ورواية العلماء من عوارض الزمان والمكان وطبيعة المتلقّين "ويومئذ كان قد اجتمع للمتأخرين من طبقة الرواة العلماء قدرٌ وافرٌ جدًا من الشعر الذي انحدر إليهم ... وقد لقيت هذه الطبقة من متأخري العلماء الرواة عنتًا شديدًا في جمع ما رواه العلماء القدماء، وفي تمحيص ما وقع لهم ... لتفرّق ذلك كله ... ولكثرة ما وقع لهم من المكتوب والمحفوظ، ولاختلاف ذلك كله"[٤]، فطبيعةُ الرواية المُقَيَّدَةِ لمتأخِّرِيْ العلماء يَلْحَقُها -بما يدخل عليها من عوارضٍ- بعض النقص أو الاختلاف في عدد الأبياتِ، ويلحقها تغيير أو حذف في الألفاظ، فطبيعتها تُوْجِبُ الحرص؛ لأنَّ دِقَّتها تعتمد على ما يتَّصِفُ به الراوي من الضبط والإتقان، أو الغفلة

---

[١] المصدر نفسه، ص٢٦٩.
[٢] المصدر نفسه، ص٢٧٠.
[٣] انظر المصدر نفسه، ص٤١.
[٤] المصدر نفسه، ص٤١.

والنسيان[1]، ولهذا، يَعْمدُ الأستاذ شاكر إلى ثلاثةِ معاييرٍ في تَمْحِيصِ كُتُبِ العلماء، وهي:

(١) الكتاب من جِهَةِ الثِّقةِ به.

(٢) الكتاب من جِهَةِ غاية كاتبه في الكتاب.

(٣) الكتاب من جِهَةِ طريقة التأليف القديمة.

أما الكتاب من جِهَةِ الثقة به، فيعتمد الأستاذ شاكر على هذا المعيار كثيرًا، منها ما جاء في قضية نسبةِ قصيدةِ ابن أختِ تأبَّطَ شَرًّا، فقد رَدَّ الأستاذ شاكر نِسْبَةَ القصيدة إلى ((الهَجَّال بن امرئ القيس الباهلي)) التي جاءت في كتاب ((التيجان)) لابن هشام (ت: ٢١٨هـ)؛ لأنَّ الكتاب "فيه آفات عظيمة، وأخباره لا يطمئنّ إليها أحدٌ من أهلِ العلمِ، والشعرُ الذي فيه خليطٌ فاسدٌ جدًا ... وابن هشام نفسه كان قليل العلم بالشعر، حتى لو صحّت نسبة ((كتاب التيجان)) هذا المطبوع إليه"[2]، فَرَدُّ نِسبةَ القصيدة قائمٌ على شَكِّ الأستاذ شاكر في الكتابِ ذاته من جِهَةِ الثِّقَةِ به، ولا يعني هذا الشك أن يطّرح الكتابَ كُلَّه، إنما أن يأخذ منه ما أراد من علوم، لكن بالحذر العلمي، وقد مر كيف أن الأستاذ شاكر اعتمد روايةَ لَفْظٍ من كتابِ التيجان الذي يشك فيه، بدلًا من روايةِ خلفٍ الأحمر التي هي في محل ثقة.

أما من جِهَةِ غايةِ كاتبه في الكتاب، فقد رَدَّ الأستاذ شاكر ترتيب قصيدةِ ابن أختِ تأبَّطَ الذي جاء في كتابِ العقد الفريد لابن عبد ربه؛ لأنها رواية مختلّة[3]، فيرى الأستاذ شاكر أنَّ ابن عبد ربِّه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ) لم يكن راويًا، ولم يُبْنِ كتابَه ((العَقد الفريد)) على الرواية[4]، وكذلك ردَّ الأستاذ شاكر ما جاء في كتاب الحيوان للجاحظ من ترتيب بعضِ معاقد القصيدة ذاتها، يقول: "ذكر الجاحظ ثمانية أبيات منها ... وظاهرٌ من قراءتها متتابعة أن الترتيب هنا خلطٌ لا يُعتد به، إنما كان الجاحظ يتخيّر من القصيدة أبياتًا كيفما اتفق، لم يبال بترتيب الرواية"[5]، وظاهرٌ أن سببَ ردِّ الأستاذ شاكر لترتيبِ روايةِ الجاحظ هو فهْمُ غايةِ كتابِه، فقد بنى الجاحِظُ كتابه على غير غاية الرواية، فلهذا لم يأخذ الأستاذ بترتيبِ ما جاء في كتاب الجاحظ.

أما من جِهَةِ طريقةِ التأليفِ القديمةِ، فيستخدمها الأستاذ شاكر في مواطن

---

[1] المصدر نفسه، ص٤٢.

[2] المصدر نفسه، ص٥٣.

[3] انظر المصدر نفسه، ص١٢٧.

[4] انظر المصدر نفسه، ص١٢٧.

[5] المصدر نفسه، ص١٢٨.

كثيرة، أحدها في نفس قضيةِ عبد الله بن سبأ اليهودي، وما كان من رأي الأستاذ طه حسين فيها، فأحد أدلة الأستاذ طه "أنه كان من حجة الدكتور في نفي خبر عبد الله بن سبأ اليهودي اللعين أن البلاذري لم يذكره ... هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذري، قد يترك المؤلف فيها شيئا في مكان، ثم يذكره في مكان آخر، وكان أولى أن يُذكر في المكان الأول ... أفلا يجوز أن يكون البلاذري قد ذكره مثلا في ترجمة (عمار بن ياسر) أو (محمد بن أبي بكر) أو (محمد بن أبي حذيفة) أو رجل ممن اشترك في هذه الفتنة؟ وهو يعلم أن الذي وُجد من كتاب البلاذري قسمٌ ضئيلٌ جدًا"[١]، فيحرص الأستاذ شاكر أن يأخذ طريقةَ التأليفِ القديمة بالاعتبار، ليقيم الدلالات واضحة قبل أن يشرع في الحكم أو التحليل.

إذن، يُمَحِّصُ الأستاذ شاكر جميع الكتبِ التي جاءت بروايات الشِّعر القديم بهذه المعايير الثلاثة، ولم يُحصَر تمحيصُه على هذه المعايير فحسب، فقد شَكَّكَ الأستاذ شاكر في نسخة العقد الفريد لابن عبد ربه؛ لأن "في نُسخِهِ المخطوطة زيادة ونقص، وأما ما طُبِعَ منه ففيه اضطراب، وقد طُبِعَ مرات، أمثلها الطبعة الأولى الأميرية ... والأولى لم تُحقَّق تحقيقًا يُعتمد عليه، ولا يُدرى عن أي النُسَخِ طُبِعَت"[٢]، فقد يَخرج التمحيص عن المعايير الثلاثة، وكل هذا تحرٍ في البحث عن الدلالات التي ممكن أن تُعين المحلل على إقامة القصيدة على أصول من المعرفة التي يوثق بها.

وبناءً على ما سَبَق، يمكن القول إنَّ حرص وتحري الأستاذ شاكر في طبيعة الرواية وما يَتَفَرَّعُ منها ضربٌ من أضربِ البحثِ في السياق، فالقصيدة القديمة حين قالها شاعرها وتناقلتها الرواية الشَّفَهِيّة من جيلٍ إلى جيلٍ جاريًا على رواتها ما يجري على البشر من موتٍ ونسيانٍ وخلطٍ بين الأبيات، كل جيل من هذه الأجيال يصيبه ما أصاب سابقه، ثم انتقلت إلى صدور العلماء جيلًا بعد جيل، جاريًا عليهم ما جرى على رواة البادية، ثم انتقلت إلى عصر تقييد الروايات، حتى أصبحت بعد زمنٍ ممتدٍ في كتابٍ بين أيدينا، قد يعرض للقصيدة التي تُنوقِلَت بين كل هذه الأجيال فسادٌ كبيرٌ، ويرى الأستاذ شاكر أن تقدير هذه العوارض مهمٌ في وَضْعِ الدلالاتِ موضعها، ولهذا أوصى الأستاذ شاكر بأربعة أمور ينبغي استقصائها[٣]:

---

[١] محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، قرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ج١، ص٥٢٠ و ٥٢١.

[٢] محمود شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، دار القدس، ط١، ١٩٩٦م، ص١٢٧.

[٣] محمود شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، دار القدس، ط١، ١٩٩٦م، ص١٢١.

(١) استقصاء المصادر التي روت القصيدة تامة، أو روت قدرًا صالحًا منها.
(٢) استقصاء الاختلاف في عدد الأبيات في كل رواية.
(٣) استقصاء الاختلاف في ترتيب أبيات كل رواية.
(٤) تسجيل أي اختلاف في الألفاظ يقع في جميع الروايات.

وهذا التحري نوع من أنواعِ البحث في السياق وعوارضه، بما يُعين في تحديد الدلالات، ولم يقتصر مفهوم السياق عند الأستاذ شاكر على هذه الدائرة التي تسبق تحليل القصيدة، بل يتعدَّى مفهومه للسياق إلى توجيه المعنى ذاته في القصيدة عن طريق قرائن النَّصِّ السياقية، فهو يجمعُ بين ما يُعين على تحديد الدلالة، وبين ما يوجِّهُ المعنى عن طريق قرائن النص السياقية، فمنهجُ الأستاذ شاكر يحرصُ على البحث الشاملِ لقرائن النص المقامية واللغوية لأجْلِ فَهْمِ مراد النص الدقيق، ولهذا تجد السياق قد يُغيِّرُ من معنى النص عنده، ومنها ما جاء في طريقةِ فَهْمِه لبيتِ دويد بن زيد حين حضره الموت، وهو:

وَرُبَّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوَيْتُه // وَمِعْصَمٍ مُخَضَّبٍ ثَنَيْتُه

وقد رد فهمه الدكتور أحمد صقر بما فحواه أن الأستاذ شاكر استكثر من معاني البيت وزاد في معانيها، وأن البيت لا يوجد فيه أكثر من ذِكْرِ الشاعرِ شبابَه ومتاعَه بالنساء السمينات السواعد، يقول الأستاذ شاكر ردًّا على الأستاذ أحمد صقر: "ولما كنت أعلم، والله أعلم، أن لكل لفظٍ يأتي به الشاعر دلالةٌ على معنى، وأنه لا يسوغ لي أن أسقط بعض الألفاظ أو دلالة بعض الألفاظ، فقد شرحتُ الأبيات، على قدر حظي من فهم الشعر، ومن فهم لغة العرب، ومن فهم بعض طبائع البشر ... ولكني رأيت الشاعر أغفل ذكر الساعد وأتى بالصفة ((الغيل))، لا لأنه أراد ((السواعد السمينة))، بل لأنه أراد ساعدًا يترقرق ماء شبابه، كما يترقرق الغَيْل، وهو الماء السَّح، السَّهْلُ الجرية على وجه الأرض، يتلألأ بريقه بين الشجر الملتف الناضر، وفي ظلّه الظليل، وإذا كان ماء شبابه كذلك، فهو ساعد ممتلئ مشرق البشرة، لم يهجّنه إسراف في ((سمن))، بل هو ((غيل حسن))، وهو نعتٌ يدل على القصد والاعتدال والبراءة من الإسراف، وإذا كان كذلك فصاحبته منعّمة"[1]، ثم يكمل الأستاذ شاكر شرح الدلالة المحددة التي أرادها الشاعر من لفظة ((لويته)) التي في البيت السابق: "والظاهر على مذهب الأستاذ صقر، أنه أراد أنه لوى ساعدها كما يُلوى الحبل، ولكني أعجبُ: أي

[1] محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، قرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ج٢، ص٩٠٣.

متاع كان لدويد في أن يلوي ((سواعد سمينة))؟ ... وأي لذة يجدها في أن يثني معصمًا مخضّبًا؟ وأسأل نفسي: ما الفرق بين اللذتين: لذة ليّ السواعد السمينة، ولذة ثني المعاصم المخضّبة؟ وكيف يكون هذا الليّ وهذا الثني هما آخر ما يذكره من متاع شبابه حين حضره الموت؟"[١]، تأمل كيف وضع الأستاذ شاكر قبل أن يشرع في تحليل دلالة لفظتي ((لويته وثنيته)) القضية على حقيقتها أولًا، ثم ذِكره لسياق الشاعر وأنه في حضرة الموت، فهذا السياق أشبه بأن يوجِّه معنى البيت إلى التفاخر بما مضى من شباب الشاعر ولذته بفتوته، وفعل الأستاذ باستحضاره طبيعة البشر في التفاخر بما مضى من الشباب وترجيع الذكرى على جميلٍ كان، والحسرة على أنه انقضى، ثم استحضاره لمنطق المعاني في تحديد دلالة اللفظتين بما يجعلها مستقيمةً على مقصد الشاعر، كل هذا ضرب من السياق، يستخدمه الأستاذ شاكر لكي يحدد الدلالات، مُستعينًا بقرائن النَّصِّ السياقية، ويرى الأستاذ شاكر أيضًا أن دلالة ((لويته)) من البيت نفسه تَدلُّ على "أن الفتاة راعها إقدامه على تجاوز الأحراس بلا خوف، فعلمتْ شدة هيامه بها، فأعجبها إقدامه وزادها به صبابة، فلما دنا إليها ((عطفتْ)) ساعدها عليه، وضمّته ضمة شوقٍ وفتنةٍ وإعجابٍ، فجاء دويد ونَسَبَ إلى نفسه أنه ((عطف ساعدها أو لواه))، لأن إقدامه هو الذي استخفّها ... هو الذي زادها صبابة، وهو الذي نفى من قلبها فَرَق العذراء وحياءها، فعطفتْ عليه ساعدها وضمّته ... أما ليّ السواعد السمينة كما يُلوى الحبل، فلا أظنه يصلح أن يكون متاعًا، ومتاعًا يتمدّح بذكره شيخٌ يصيخ لداعي المنية"[٢]، فيستخدم هنا الأستاذ شاكر السياق اللغوي والمقامي في توجيهه المعنى وتحديده.

إذن، يدخل مفهوم السياق عند الأستاذ شاكر في كلِّ ما يُعين على تحديد أو توجيه المعنى، ويتناسق مفهوم السياق عند الأستاذ شاكر مع مبدأه في فهم الكلام شعرًا كان أم نثرًا، وهو: أن كل كلامٍ يقطع من نفْس المُتَكلّمِ ما يدل عليه، فالبيان عنده هو صورةٌ عن صاحبه، عن عقله وأفكاره وتجاربه، وهي تُدْرَكُ عن طريق أدوات البيان، أي الأحرف والكلمات والجمل، وهذه الأدوات "قادرة بفضل هذه القوة الغريبة النفسية العجيبة المنشئة للكلام، أن تُحَمِّل الأحرف والكلمات والجمل ضروبًا أخرى من الدلالات الخفية والظاهرة، والكامنة والمنسابة، تدل على هيئة صاحبها، وعلى حركاته عند إنشاء الكلام ... وهذا شيءٌ تحسه أحيانًا إحساسًا خاطفًا في الشعر وغير

[١] المصدر نفسه، ص٩٠٣ و٩٠٤.
[٢] المصدر نفسه، ص٩٠٤.

الشعر"[1]، فمفهوم السياق يشمل كل ما يُحدد المعنى ويُوجِّهه بمعونة قرائن النص السياقية والمقامية، ومفهوم السياق بهذا المعنى يتناسق مع مبدأ الأستاذ شاكر في قراءة الشِّعر واستنباط دلالاته.

المبحث الثاني: علاقة السياق بالوحدة عند شاكر

يستند البحث على قاعدةٍ، وهي أنَّ وحدة النَّصِّ لا تظهر إلا بفهمِ الروابطِ التي تكون بين أجزاءِ النصِّ، أي بين جُمَلِه ومعاقِده، ومن مجموعِ دلالاتِ الجُمَلِ ومجموعِ دلالاتِ المعاقِد يظهر المعنى الشعري من نَصِّه، ويستخدمُ الشاعرُ أدواتِ البيانِ، أي الأحرف والألفاظ والجُمَل لإصابةِ المعنى الشعري، فالمعنى الشعري هو الذي يَلُمُّ أجزاءَ النص ويؤالِفُ بينها، وبما أنَّ السياق عند الأستاذ شاكر مساهمٌ في تشكيلِ المعنى الشِّعري بقدرته على توجيه دلالاتِ النص، فالسياق مُعينٌ في الكشفِ عن المعنى الشعري من نصِّ الشاعرِ بمساهمتِه في بناءِ المعنى الشعري، فكلَّما اتَّضَحَتْ دلالاتُ النصِّ، اتَّضَحَتْ الروابط والعلاقات القائمة بين أجزاء النصِّ، ومن ثَمَّة يتَّضِحُ المعنى الشِّعري، وبوضوحِ المعنى الشعري تتكَشِفُ وحدةُ النصِّ؛ لأنَّ العلاقات والروابط بين المعاني أصبحتْ واضِحَةً، فمفهوم السياق من جِهَةِ أنه أداةٌ تُساهِمُ في تشكيل المعنى الشعري، فهو مساهمٌ في الكشفِ عن الروابط والعلاقاتِ بين المعاني، أي أنَّه مساهمٌ أيضًا في الكشفِ عن وِحْدَةِ النصِّ.

إذن، بما أنَّ وحدة النصِّ مرتبطة بوضوح دلالاتِ الألفاظِ وبوضوحِ العلاقاتِ بين أجزاءِ النصِ، فمفهومُ السياقِ عند الأستاذ شاكر يحملُ أهميةً بالغةً في الكشْفِ عن وحدةِ النصِ؛ لأنه يوجِّه المعنى ويحدِّدُه، فهو عنصرٌ يساعدُ على تشكيلِ المعنى الذي أراده الشاعرُ بألفاظِه، فمن شأنِ السياقِ بمفهومِ الأستاذ شاكر أن يوضِّحَ من دلالاتِ الألفاظِ عن طريقِ قرائن النصِ السياقيةِ، ولذا يحاول الأستاذ شاكر جَمْعَ أكبر قدرٍ يُعينه على تَصوُّرِ دلالاتِ القصيدة من أخبارٍ تتعلق بالقصيدة، ومن جمعِ روايات القصيدةِ، الكاملةِ منها والمُفَرَّقَةِ؛ لأنها قد تعين على تصوِّرِ وتحديدِ وتوجيهِ معاني القصيدة.

يتَّضِحُ مما سبق أنَّ مفهوم السياق عند الأستاذ شاكر مُرتَبِطٌ ارتباطًا وثيقًا بمفهوم الوحدة؛ لأنَّ وحدة النصِّ لا تُفهم فهمًا صحيحًا، إلا من خلال فهمِ دلالاتِ الألفاظِ الدقيقةِ والعلاقاتِ القائمة بينها، وبما أن السياق يساعد على تشكيلِ الدلالة

[1] محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، قرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ج٢، ص١١٦٤.

الدقيقة بتوجيهه للمعنى أو تحديده، فهو عاملٌ مهم في بناء وحدةِ النصِّ وتوضيحها عن طريق قرائن النص السياقية التي توضِّحُ الدلالات الدقيقة.

يستند الأستاذ شاكر على السياق في إثباتِ دلالاتِ الألفاظِ، ففي قضية ألفاظ الشعر، يرى أنّ كُتُبَ المعاجمِ وشرحِ الشعرِ ليست بكافيةٍ في إظهارِ تمامِ المعنى الشِّعري؛ لأنّ نهج هذه الكتب "ضبط أصول معاني الألفاظ، دون ما سلكته هذه الألفاظ على ألسنة الشعراء من مجازاتٍ ودروبٍ ومدارج"[١]، ويرى الأستاذ شاكر أنَّ مراجعة أكثر كُتُبِ شرحِ الشِّعر "تدلّنا على أن هؤلاء الشراح كان أكثرهم أقربَ إلى أصحاب اللغة وأهل النحو ... ولم يبالوا شيئًا بالنظر في **جملة القصيدة، وما ينتظمها أو يتخللها من مرامي الشاعر في شعره**"[٢]، ويتبيَّنُ أن الأستاذ شاكر يعتمد في إثباتِ المعنى الشعري على السياق، فالسياق عنده هو أحد محددات دلالات الألفاظ؛ لأن الفرق واسعٌ بين دلالةِ اللفظِ في المعجمِ، خارجةٍ عن أي سياق، وبين لفظٍ وُضِعَ في سياق ما تحت غرضٍ ما، فلهذا يؤكِّد الأستاذ شاكر أن تفسير المعاجم وشروحِ الشعر للألفاظ "**يقع دون غرض الشاعر أحيانا، أو يزيد عليه أحيانا أخرى**، ويقع فيها أيضا من الشرح ما غيره أولى به، وما هو خطأ محض في معنى الشعر، وإن كان صحيحا في معنى اللغة"[٣]، وبغموض دلالاتِ الألفاظ تغمض معانيها، وبغموض معانيها تغمض العلاقات والروابط التي أقامها الشاعر بين ألفاظِ نَصِّه، وبغموضها يغمض المعنى الشعري، فتغمض من ثَمَّ وحدة النصِّ، فيستخدم السياق الأستاذ شاكر لإثباتِ الدلالات المخصوصة التي تناسبُ معاني النص، وتُلاؤمُ بين أجزاء النص ودلالاته.

من هذا الباب، دلالةُ لفظِ ((مصمئلّ))، من البيت الخامس من قصيدة ابن أخت تأبط شرا، وهو:

(٥) خَبَرٌ ما، نابَنَا، مُصْمَئِلُّ // جَلَّ، حَتَّى دَقَّ فِيهِ الأَجَلُّ

يقول الأستاذ شاكر مبيّنا الاختلاف بين دلالةِ اللفظِ في الشعرِ نفسه، ودلالة اللفظِ في المعاجمِ: "وأصحاب اللغة يقولون: ((المصمئل))، المنتفخ من الغضب، و((المصمئل))، الشديد، فلو اقتصرتَ على نص اللغة هنا في تفسير هذا اللفظ، لفقد الشعر معناه، وإنما فحوى **مراد الشاعر** أن يدلّك على أنه كلما زاد الخبر تأملًا، زاد

---

[١] محمود شاكر، نمط صعب ونمط مخيف، دار القدس، ط١، ١٩٩٦م، ص١٣٤ و١٣٥.
[٢] المصدر نفسه، ص١٣٦ و١٣٧.
[٣] المصدر نفسه، ص١٣٧.

تفاقمًا وتعاظمًا، وأطبق عليه إطباقًا ... فأولى أن يُقال: إنه من قولهم: ((اصمألّ النباتُ))، إذا التفّ وعَظُمَ وأطبق بعضه على بعض من كثافته ... فأنت في مثل هذا الموضع، محتاج في البيان أن تزيدَ على نصِّ اللغةِ، مستدلًا بأصل مادة اللغة"[1]، يزيد الأستاذ شاكر في دلالة لفظ ((مصمئل))؛ لأنه رأى قصورَ دلالةِ المعاجم على أداء معنى الرثاء وأداء معنى الإطباق والتفاقم، فَكَثَّفَ السياق اللغوي والمقامي من دلالة اللفظِ بما رآه الأستاذ شاكر ألصق بمعنى البيت في هذا السياق وألصق بمعاني القصيدة، وهذا تأكيد على أن دلالة لفظةٍ ما، تختلف في الدلالة عن لفظةٍ تحت سياقٍ وغرضٍ ما، وإن كانت اللفظة هي نفسها، وهذا البحث في إثباتِ الدلالةِ المخصوصةِ للألفاظِ مُعِينٌ على فهم دلالات الألفاظِ المخصوصة، وبفهمها تتضح الروابط والعلاقات بين المعاني التي أقامها الشاعر بين دلالاتِ ألفاظه، ومن ثمَّة تتّضِحُ وحدةُ النصِّ، فمفهوم السياق أعان الأستاذ شاكر على إثباتِ دلالةِ اللفظِ التي تستقيم مع معاني القصيدةِ، وتتناسق مع مقصدها.

يستخدم الأستاذ شاكر السياق في إثباتِ دلالتيْن للفظيْن اختلف الشُّرَّاحُ في تفسيرهما وتقعا في قول الشاعر من نفس القصيدة:

(١١) مُسْبِلٌ في الحَيِّ، أَحْوَى، رِفَلٌ // وإذا يَعْدُو، فَسِمْعٌ أَزَلُّ

يصف الشاعر في البيتِ شمائل خاله تَأَبَّطَ شَرًّا مفتونًا بخِصالِ خالِه الحميدة، وقد بُنِيَتْ دلالاتُ المعقِد الثاني الذي يقع هذا البيت فيه مُتناسِقة مع هذا المقصدِ، لكنَّ "المرزوقي، وأبو العلاء المعري، والتبريزي مجمعون على أن الحرف ((مسبل))، هو من ((إسبال الإزار))، وهو إرخاؤه يُسحب على الأرض خيلاء وكِبْرا وتبخترا ... أما أبو العلاء المعرّي، فإنه ذهب في ((أحوى))، مذهبين، أحدهما: أن يكون معنى ((أحوى)) هو الذي به حُوَّةٌ، وهي سمرة الشفتين، تكون حمراء تضرب إلى السواد ... وذهب أبو العلاء إلى تفسيره هذا التفسير، إذا كان ((مسبل)) من ((إسبال الإزار))، والثاني: أن يكون ((أحوى))، من صفة الشَّعْر ... فيكون ((مسبل)) عاملًا في نصْب ((أحوى))، أي هو ((مسبل شَعرًا أحوى))، وهذا المذهب الأخير هو الذي اقتصر عليه التبريزي"[2]، يرى الأستاذ شاكر أن التفسيريْن لا يتفقا مع دلالاتِ المعقِدِ وغرضه، فيرى أن "مسبل، **في هذا الشِّعر**، إنما يعني به فرسًا عتيقًا ضافي السبيب، قد أسبل ذيله، يرخيه أو يشيل به، ويضرب به يمنة ويسرة، واختال اختيالًا، وتبختر في مشيته،

[1] المصدر نفسه، ص١٤٥ و١٤٦.
[2] المصدر نفسه، ص١٥٧ و١٥٨.

وشبّه خاله به في خيلائه ... وإذا صح أن يُقال: ((أسبل الفرس ذنبه))، وهو صحيح، صحّ أيضا أن يُوصف فيقال: ((مسبل)) مجردةً، من ((أسبل الرجل إزاره))"[١]، فحاول الأستاذ شاكر أن يحدد دلالة اللفظين ويوجِّههما بما هو أليقُ بسياقِ دلالاتِ المعقِد الثاني الذي يقع البيتُ فيه، وبما يتناسق مع دلالاتِ معاني القصيدة، وبما هو أقرب لطبيعة التمدّح بالصفات عند البشر، فالمدح بالصفاتِ النفسيةِ الحسنةِ كالتي جاءت في أبياتِ هذا المعقِد، أولى من مَدْحِ الزينة والحُلِي من لباسِ قميصٍ أو لونِ شفةٍ أو شَعْرٍ، فأثبتَ الأستاذ شاكر لدلالةِ اللفظيْن ما يتوافق مع سياق دلالاتِ المعقِد مُستَعينًا بالسياق اللغوي الكامنِ في دلالاتِ المعقِدِ، وبالسياقِ المقامي الكامنِ في طبيعةِ التمدُّحِ بين البشرِ؛ ولهذا يقول الأستاذ شاكر: "قد صار بيّنًا بعد هذا أن الشاعر مثّل صاحبه في الشطر الأول، وهو في الحي فرسًا أحوى من الجياد العتاق، ذيّالًا يرفل من خيلائه وزهوه، ومثّله في الشطر الثاني، إذا فارق حيّه في غاراته سِمْعا أزلَّ سريع الخطفة، لا تُفلت فرائسه، فقابل بما في الشطر الثاني، ما مضى في الشطر الأول، **على سواء واستقامة**، لم يذكر في الآخر منهما حلية لصاحبه في بدن ولا لباسٍ، **فوجب ألا تكون في أولهما حلية له في بدن ولا لباس، وهذا الاستواء ظاهر في الأبيات التي قبله كلها، فمن غير المعقول أن يخل بذلك في هذا البيت المفرد**"[٢]، فتَرَكَ الأستاذ شاكر دلالتيْ أبي علاءٍ المعري؛ لأنّ اعتماد دلالته يُخِلُّ بتناسق دلالاتِ المعاني فتُفسِدُ المعنى الشِّعري[٣]، مما يجعل الروابط والعلاقات التي أقامها الشاعر بين دلالات نصِّه غامضة ومُخْتَلَّة النَّسَقِ، فوضوح دلالاتِ الألفاظِ واتِّساقِها، ووضوح الروابطِ بين دلالاتِ الألفاظِ مُعينةٌ على تَصَوُّرِ المعنى الشِّعري، ومن ثَمَّ على وحدةِ النصِّ، فسياق القصيدةِ اللغوي والمقامي أعان الأستاذ شاكر على إثباتِ دلالاتِ ألفاظِ النصِّ بما يتوافق مع معاني القصيدة، ولذا فالسياق عاملٌ مُهمٌ في عمليةِ تَصَوُّرِ وحدةِ النَّصِّ.

يستعمل الأستاذ شاكر السياق في استنباطِ التَكَثُّفِ الدلالي للفظِ ((مُدِلٌ)) من البيت الثامن الواقِع في المعقِدِ الثاني من قصيدة ابن أخت تأبط شرا، وهو:

(٨) يَابِسُ الجَنْبَيْنِ مِنْ غَيْرِ بُؤْسٍ // وَنَدِي الكَفَّيْنِ، شَهْمٌ، مُدِلُّ

يرى الأستاذ شاكر أن المرزوقي اقتصر في دلالة ((مُدِلٌ)) من هذا البيت

---

[١] المصدر نفسه، ص١٥٨ و١٥٩.
[٢] المصدر نفسه، ص١٦٤.
[٣] انظر المصدر نفسه، ص١٦٤.

على معنى الاعتدادِ بالنفسِ والثِّقَةِ بِسِلاحِها، ويؤكِّدُ الأستاذ على أن هذه الدلالةَ قاصرةٌ على إدراكِ تكثيفِ الدلالةِ الذي وَقَعَ للفظِ في هذا السياقِ، "إنما ((المدل)) هنا، من قولهم: ((أدَلّ البازي على صيدِه))، إذا انقضّ عليه هاويًا من جو السماء ... وقد استوفى جرير ،في بائيته المشهورة، صفة ((البازي المدلّ))،حيث قال للراعي النميري..

أنا البَازِي المُدِلُّ عَلَى نُمَيْرٍ // أُتِحتُ مِنَ السَّمَاءِ لَهَا انْصِبَابَا

إذا عَلِقَتْ مَخَالِبُه بِقِرْنٍ // أَصَابَ القَلْبَ أَو هَتَكَ الحِجَابَا

تَرَى الطَّيْرَ العِتَاقَ تَظَلُّ مِنْهُ // جَوَانِحَ للكَلاكِلِ أَنْ تُصَابَا

فوصَفَ لنا ((البازي المدل)) في انصبابه على الصيد من جو السماء"[1]، فيرى الأستاذ شاكر أن دلالةَ الواثِقِ من نفسِه وسِلاحِه فحسب، لا تقوم بحملِ الدلالةِ التي تليقُ بسياقِ دلالاتِ المعقِد، فأثبَتَ للفظِ دلالاتٍ عديدةٍ تقومُ بمعنى اللفظِ الذي اختاره الشاعر في هذا السياق وتتلاءم مع دلالاتِ معاني المعقِدِ التي تَقَعُ فيه[2]؛ لأنَّ سياقَ البيت الثامن مليءٌ بالحرَكَةِ الدلاليةِ، ودلالة المرزوقي للفظِ ثابِتَةُ الدلالةِ، ولهذا استشهد الأستاذ شاكر بأبياتٍ من بائيَّةِ جريرٍ التي استوفَتْ معنى الحَرَكَةِ في ((مُدِلٌ))، وحَصَلَ استيفاءُ المعاني العديدة في اللَّفْظِ الواحدِ عن طريق السياقِ؛ لأنَّ تمامَ المعنى في هذا السياق يحصل بتكثيفِ الدلالة بما يليق بمعاني السياق، وبإصابةِ تمامِ المعنى وبوضْعِ الدلالةِ التي تليق بسياقِ دلالاتِ المعقِدِ تتَّضِحُ الروابط والعلاقات بين المعاني والدلالات، وبوضوح الروابط بين المعاني تظهرُ وحدةُ النص.

تُؤكّد هذه الاستخدامات للسياق على أنه أصلٌ من أصولِ استخراج الدلالات الدقيقة للنصوص عند الأستاذ شاكر، وباستخراج الدلالات الصحيحة للنص يتّضح المعنى الشعري، وبوضوحه تظهر القصيدة تحت كُلٍّ واحدٍ، يجمع أجزائها، ويُعلل غريبها، ويُخرج دقيق دلالاتها، وبذا يتضح أن مفهومَ السياقِ مُعينٌ في فَهْمِ وحدة النص.

هذا مفهومُ السياقِ عند الأستاذ شاكر، يوجِّهُ المعنى ويُحَدِّدَه، وبتحديدِ المعنى وتوجيهه يكون مُسَاهِمًا في تشكيلِ المعنى الشِّعري، وعلى فهم المعنى الشعري يقوم تصوّر وحدةِ النصِّ، فلا يُمكن تَصوّر وحدةٍ تَجْمَعُ أجزاءَ النص بغموضِ معاني أحد أجزائها، ومفهوم السياقِ يُعين مُحلل القصيدة على كشف الغموض الذي قد يلحق المعنى الشعري بتوفيره من القرائن السياقية ما يحددُ ويُوَجِّه المعاني فتتَّضِحُ الدلالاتُ والروابطُ التي أقامها الشاعر بين المعاني، وبوضوحها تتَّضِحُ وحدةُ النصِّ، فمفهوم السياقِ

---

[1] المصدر نفسه، ص١٨٢.

[2] انظر المصدر نفسه، ص١٨٢.

إذن، مُعين في الكشْفِ عن وِحْدَةِ النَّصِّ.

الخاتمة

تبيَّنَ أنَّ مفهوم السياق عند محمود شاكر لا يرد في صورةِ تعريف اصطلاحي محدد، بل يتجلى بوصفه أداة توجه المعنى وتساهم في عمليات التأويل باستحضار القرائن السياقية المختلفة وربطها في بناء المعنى، وعليه انتهى البحث إلى عدة نتائج، أبرزها:

١- كشف البحث أن السياق عند محمود شاكر يتجاوز حدود السياق اللغوي والمقامي إلى ما هو أوسع، إذ يشمل كل ما يعين على تحديد الدلالة وتوجيهها، كالرواية، وطبيعة المتكلم، وسياق التاريخ، والظروف المحيطة بالنص.

٢- أثبت البحث أن منهج محمود شاكر في تحليل النصوص يقوم على جمع القرائن السياقية واستقصائها قبل إصدار الحكم، مما يجعله منهجا نقديا قائما على التحري والدقة في استنباط المعاني من النصوص.

٣- تبين أن العلاقة بين مفهوم السياق ومفهوم الوحدة علاقة وثيقة؛ إذ يساهم السياق في توضيح دلالات الألفاظ، ومن ثَم الكشف عن الروابط بين أجزاء النص، بما يؤدي إلى تصور وحدة النص وتماسكها.

٤- انتهى البحث إلى أن السياق يمثل أداة أساسية في بناء المعنى الشعري، وأن وضوح هذا المعنى الشعري الناتج عن مساهمة السياق في توجيه الدلالة، الأمر الذي يفضي إلى تحقق وحدة النص.

وبناءً على ما تقدم، يتبين أن مفهوم السياق عند محمود شاكر يمثل أداة منهجية فاعلة في المساهمة في قراءة النص الشعري، إذ تسهم في توجيه دلالات النص والكشف عن معانيه، بما يساهم في عملية تصور وحدة النص وإدراكها.

التوصيات البحثية

١- يوصي البحث بإجراء دراسات معمقةٍ تُعنى بقية المفاهيم النقدية عند محمود شاكر، كمفهوم النغم، والإسباغ والتعرية، بما يساهم في إثراء تصوراتنا عن منهج محمود شاكر النقدي.

٢- يوصي البحث بإجراء دراسات في الكشف عن مفهوم الوحدة عند محمود شاكر، من خلال تأصيل وتأطير لرؤيته النقدية في مفهوم الوحدة وطرق استنباطها وتصورها من النصوص الأدبية، بما يساهم في بناء تصورٍ متكامل عن منهج محمود شاكر النقدي.

المصادر والمراجع

- المصادر:

- ابن فارس، **مقاييس اللغة**، راجعه وعلّق عليه: أنس الشامي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١١، ٢٠٢١م.
- الزمخشري، **أساس البلاغة**، مراجعة: محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، بيروت،٢٠٠٩م.
- أبو نعيم الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢.
- محمد بن إدريس الشافعي، **الرسالة**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.
- محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م.

- المراجع:

- أرسطو، **فن الشعر**، ترجمة وتحقيق: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٥٣م.
- جورج يول، **دراسة اللغة**، ترجمة: حمزة المزيني، دار جداول للنشر، ٢٠١٧م.
- جمال صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
- خلود العموش، **الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق**، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ٢٠٠٥م.
- عبد الله الطيب، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، مطبعة الكويت، ١٤٠٩هـ.
- كمال علي بابكر عبد العزيز وعبد المنعم الكاروري، **الإطار النظري لمفهوم السياق**، مجلة دراسات حوض النيل، مجلد٧، عدد١٣، ٢٠١١م.
- لويس عوض، **نظرية النقد الأدبي الحديث**، دار الأمين، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
- محمد علي الخولي، **معجم علم اللغة النظري**، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- محمود محمد شاكر، **جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر**، قرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢.
- محمود محمد شاكر، **نمط صعب ونمط مخيف**، دار القدس، ط١، ١٩٩٦م.